الفصل الرابع

بيئة القديس بولس

(ا) طرسوس : مدارسها ومدى إشعاعها – التربية الفكرية للقديس بولس – كيف أصبح حواريًا لعيسى – خلقه – مدى أصالته – عناصر عقيدته وأهمية البحث فيها .

(ب) الآلهة المنقذون فى الشرق اليونانى : مدى التشابه والامتزاج بينهم – أسطورة موتهم ثم بعثهم فى مواسم سنوية معينة – أصل هذه الأسطورة ومعناها الأول – أمثلة تطبيقية من العقائد الخاصة بميثرا وأوزيريس وأدونيس وتموز – مأساة حياة وموت الآلهة .

(حـ) التفسير الميتافيزيقى لهذه القصص الإلهية – كيف ترمز إلى أسرار المصير الإنسانى – حتمية مشاركة الإنسان فى مصير الإله المنقذ من أجل أن يصل إلى عالم الخلود – كيف كانت تتم هذه المشاركة – التعميد بالدم ومأدبة القربان (مراسم التضحية بالثور عند المشركين والمأدبة الإلهية) – تشرب الإله – تشابه هذه الطقوس مع طقوس التعميد والقربان فى المسيحية – نظرية « المنقذ » فى الأسرار وفى تفكير القديس بولس .

(د) هل كان القديس بولس على معرفة بـ « الأسرار » ؟ – عقيدة طرسوس (بعل طرز وسندان) – « أسرار » أخرى – نظريات واحتمالات – أثر طرسوس الدينى على بولس – أثرها الفلسفى – خصائص العقيدة اليهودية فى طرسوس – بولس كان خليقاً بدوره كداعية للمسيحية بين الكفار بفضل الصفات الثلاث التى امتاز بها : الروح اليونانية ، الديانة اليهودية ، الجنسية الرومانية .

(١)

ذكرنا اسم القديس بولس فى سياق فصولنا السابقة . وعلينا هنا أن ندرس فى عناية البيئة التى نشأ فيها وآثارها عليه .

لقد ولد من عائلة يهودية أقامت بمدينة طرسوس فى سيليقيا ووجدت لها بها رزقاً . وكانت طرسوس مدينة نشيطة غاية فى النشاط ، تقع على نهاية حدود إقليم سيليقيا ، وتعد مفتتح سبل النفوذ إليه ، كانت حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى والشام ، ومفرق الطرق التجارية الهامة التى تجلب إليها فى آن واحد ، من اليونان وايطاليا وفريجيا وكابا دوسيا والشام وقبرص وفينيقيا ومصر . سيلا لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة . وحاول ملوك الشام - ونخص بالذكر منهم أنطاكيوس إبيفان (عام ١٧١ قبل الميلاد) - أن يصبغوها بالصبغة الإغريقية . غير أنها بقيت أساساً مدينة شرقية ، وذلك على الأقل فى مجال المعتقدات السائدة . وإن انتشرت فيها وازدهرت المدارس اليونانية ، وقام بين رحابها ما يمكن أن نسميه اليوم بـ « الجامعة » . ويقول المؤرخ الجغرافى سترابون عن تلك الجامعة : إنها كانت سبباً لشهرة المدينة فى العالم اليونانى الرومانى ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية .

وكان أساتذة هذه الدراسات ينتمون إلى المذهب الرواقى . ويبدو أنهم لم يكتفوا بغرس تعاليم هذا المذهب فى أذهان الطلبة الذين يتابعون حلقاتهم ، بل راحوا ينشرون مبادئه الأساسية وقضاياه الأولى وشعاراته المثيرة وروحه ، على نطاق أوسع ، فى شبه « حملة تبشيرية » ذات طابع شعبى يتفق مع طرق تفكير

الجماهير . وهكذا نستطيع أن نجد تفسيراً للأمر الذى يهمنا بالدرجة الأولى ، وهو معرفة بولس للمبادئ الأولى فى الفلسفة الرواقية ، وللوسائل الشائعة فى الأساليب الخطابية لدى المفكرين اليونانيين ، وذلك مع ترجيحنا أنه لم يكن من رواد جامعة طرسوس ولا من دارسى الفلسفة الرواقية ، فقد كفاه أنه عاش سنى شبابه فى هذا الوسط الذى تشبع بالتراث اليونانى على أيدى أساتذة الفلسفة هؤلاء ، الذين جمعوا بين التفكير الفلسفى والأسلوب الخطابى .

وتزعم لنا مجموعة « أعمال الرسل » أن بولس نشأ بالقدس « بجوار جماليل » ، أى بمدرسة من ألمع المدارس اليهودية فى ذاك العصر . وليس فى وسعنا بطبيعة الحال نفى هذا الخبر بصورة قاطعة ، ولكننا نستطيع القول بأنه على أى حال لا يتفق كثيراً مع الصورة العامة التى تكونت لدينا من دلائل مختلفة : فلا نفهم مثلا أن تلميذاً من تلاميذ كهنة فلسطين تصل به الحال إلى تجاهل وإنكار أساتذته كما فعل بولس فى طور من أطوار حياته ، ونراه أحسن التعبير عن الروح اليهودية التى كانت تسود – على ما يبدو – فى معابد المهجر المتأثرة بالفكر اليونانى [1] . أغلب الظن فى رأينا أنه تلقى فعلا العلوم الخاصة بأصول اليهودية واستوفاها ، وتدرج فى الدراسات الدينية إلى أبعد حدودها ، ولكن فى غير القدس من المدن ، فلم تكن فلسطين هى الموطن الوحيد للعلماء اليهود . ونحن نعلم علم اليقين أن منهم من كان يقيم أيضاً بالإسكندرية وبأنطاكية ، والدلائل تشير إلى أن بولس قد أكمل دراساته بهذه المدينة الأخيرة .

وخلاصة القول أن صاحبنا ولد بأرض يونانية ، يتحدث بلغة اليونان

(١) انظر ، فيما يتعلق بهذه المسألة الهامة كتاب ك . ج . مونتيفيورى : « اليهودية والقديس بولس » ، لندن ، سنة ١٩١٤ .

ويكتبها منذ نشأته الأولى . وكان ينتمى إلى عائلة ذات شأن ، ويحمل لقب « مواطن رومانى » وراثة عن أبيه ؛ فكان بكل ذلك معدًّا إعداداً تامًّا لإدراك وتفهم التطلعات الدينية لدى يهود المهجر الذين يؤمنون بعيسى كما آمن به هو ، ولدى المتلمذين عليهم من الطوائف الدينية المختلفة . وكان فى البدء على عداء عنيف للمسيحيين ، ثم تحول إلى صفهم على أثر أزمة نفسية لن نتعرض لها الآن بالتحليل التفصيلى ، بل نكتفى بالقول بأنها كانت نتيجة لصراع داخلى مبهم طويل . ولقد انتهت هذه الأزمة إلى رؤيا حاسمة ، حيث أيقن بولس أنه أبصر السيد المسيح أو تلقى منه كلمات واختص منه بالتشريف الأعظم : أن يكون من الحواريين ؛ وذلك خلال رحلة له قاصداً دمشق . ويجب أن نشير هنا إلى أن بولس لم يلتق بعيسى مدة حياته ؛ لذلك لم تكن تأملاته عن شخص الأستاذ وتعاليمه لتحدها آفاق الذكريات والواقع كما كان الحال بالنسبة إلى الاثنى عشر من الحواريين الذين بدءوا بالدعوة . ويجب أن نشير أيضاً إلى الصفات التى تميز بها بولس والتى كانت من أسباب نجاحه : الروح الحماسية الوثابة ، والمنطق البيِّن المدرب على المناقشة ، ثم التفكير العلمى الحى والعزيمة التى لا تقهر والتى تفرض فرضاً رسالة صاحبها وآراءه .

وإن هذه الآراء لتبدو لنا عميقة الأصالة ، إذا ما قورنت بتلك التى اكتفى بها إيمان الاثنى عشر – حتى بعد تطوراته الأولى . ولا أدل على ذلك من قراءة الفصول الأولى من « أعمال الرسل » بحذافيرها ، ثم قراءة « الرسالة إلى أهل روما » التى كتبها بولس . ويجب ألا تغرنا الظواهر ، فعبقرية بولس فى التفكير الدينى لا جدال فيها ، غير أننا إذا بحثنا هذا التفكير لديه ، وجدنا أنه ينطوى على آراء ومدركات ليست كلها من وحى عبقريته الخاصة ، بل تجمعت لديه

من مصادر مختلفة ، وإن كان له هو الفضل فى التعبير عنها ونقلها إلينا ، على غرار ما فعله فيلون الإسكندرى فى مؤلفاته التى انتظمت بين دفتيها جهود كثيرة لسابقيه من مفكرى اليهود .

والدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى[1] تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو ، لأول وهلة ، غريباً حقًّا : مزيج من دعوى الاثنى عشر الأماسية ، ومن الأفكار اليهودية – التى يرجع بعضها مباشرة إلى النصوص المقدسة القديمة ، ويرجع بعضها الآخر إلى اعتبارات دينية حديثة نسبيًّا – ثم من المفاهيم المنتشرة فى الأوساط الوثنية اليونانية ومن الذكريات الإنجيلية والأساطير الدينية الشرقية .

وعلينا أن ندرس هذه المسألة فى شىء من التفصيل : فهى تتعلق بالأسس الأولى لأخطر جدال يثيره تاريخ العقائد المسيحية : الجدال حول تطور هذه العقائد ، من دعوة عيسى كما حددناها فى الفصول السابقة ، إلى دين يستهدف خلاص البشر أجمع .

والنظرة الأولى إلى الحياة فى الشرق الآسيوى – من بحر إيجه إلى ما بين النهرين – تبين أن عدداً معيناً من الآلهة كان يحتل مكان الصدارة فيها خلال العهد الأول لقيام المسيحية . وكانت بين هذه الآلهة أوجه شبه لا تحصى ، إلى درجة أنها امتزجت وتوحدت فى بعض الأحيان . وكان أهمها : أتيس فى بلاد الفريجيين ، وأدونيس فى الشام ، وملكارت فى فينيقيا ، ثم تموز ومردوك فى ربوع ما بين النهرين ، وأوزيريس بمصر . وعلينا أيضاً إذا أردنا الانصاف أن نذكر الإله الفارسى ميثرا ، الذى بدأت شهرته فى تلك العصور بين رحاب

(١) وأقصد بها الرسائل المعروفة التى يجمع أكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها إليه .

الإمبراطورية الرومانية . وكان القوم الذين يرتحلون من إقليم إلى آخر ينقلون معهم عباداتهم وعقائدهم الدينية ، بل ينشرونها فى كثير من الأحيان خارج موطنهم ؛ ذلك أنهم كانوا يلقون ، أينما حلوا فى هذا العالم الآسيوى المتقارب ، مظاهر ومشاغل دينية شبيهة بتلك التى نشئوا عليها ، والتى عبروا عنها فى صور أسطورية واحدة ، وأرادوا تمجيدها بطقوس متقاربة كل التقارب فى غالب الأمر . وإننا لا نرجح نظرية نشوء هذه الأساطير وتلك الطقوس بعضها من بعض : إنها تشابهت لفيضها من نبع فكرى وروحى متشابه . وكانت هذه القرابة سبباً فى تسهيل المبادلات الكثيرة بين أصولها ، وفى الإسراع بالتداخل والتفاعل النشيط بين عناصرها ، فأصبحت تتسم بطابع « عائلى » قوى ، وإن ظلت هناك اختلافات بائنة بين القصص الإلهية التى تعتمد عليها جميعها . وقد نزع تيار الامتزاج هذا بين الأديان – الذى يعرف بـ « التأليف » الدينى الشرق – إلى استخلاص بعض التصورات الهامة والشعائر الأساسية من ثنايا السيل الدافق لتفاصيل العقائد والطقوس التى تلاقت فيه وتفاعلت ، وتلك التصورات والشعائر هى التى نلمحها قبل كل شىء عند دراسة أى من العبادات التى ذكرناها آنفاً ، وهى تعتبر فى الواقع العلة الأولى الواضحة لوجود كل هذه العبادات بما تهدف إليه من هدى بنى البشر للإيمان وللسبيل الكفيل بتحقيق خلوده فى ديار السعادة .

وإن الخاصة التى تثير الانتباه أكبر من كل الخصائص الأخرى لآلهة المنطقة ، عند دراسة تاريخهم الأسطورى ، لهى تلك التى بمقتضاها يموتون فى موسم معين من السنة ، ثم يبعثون بعد ذلك فى موسم آخر ، فيشعلون فى نفوس المؤمنين بهم مشاعر الأسى العميق ، ثم يستثيرون لديهم مظاهر الفرح التى تكاد

تصل إلى حد الجنون . ونلاحظ ، إلى جانب هذا ، أن هؤلاء الآلهة ليسوا فى حد ذاتهم بالآلهة العظماء البالغين فى العظمة ، بل إنهم يشبهون البشر من قريب فى الكثير من أحوالهم – وذلك ، على الأقل ، إن نظرنا إلى تاريخهم الأول : فهم عرضة للفناء ، وبعضهم – أمثال أتيس الراعى ، أو أدونيس الذى يروى أنه ثمرة علاقات غير مشروعة بين أخ وأخت – لم يكونوا سوى رجالٍ ألهتهم إرادة الآلهة الآخرين ؛ ولم يرتفعوا شيئاً فشيئاً إلى مرتبة أعلى من مرتبتهم البشرية الأولى ، ولم يصلوا إلى مصاف الآلهة المهيمنة على الأرض ، إلا بفضل الأهمية الكبيرة التى أعطيت بالتدريج لوظائفهم بالنسبة إلى الإنس . وسوف نفصل فيما يلى السبل التى انتهت بهم إلى ذلك .

لقد ثارت مناقشات كثيرة مطوّلة حول أصل هذه الآلهة المختلفة ، وحول مبدأ ورموز الأساطير التى يمثلونها . والجدل ينحصر اليوم بين نظريتين فحسب ، وإن كانت الواحدة منهما لاتلغى الأخرى : فإما القول بالآلهة « الشمسية » ، وإما التفسير بـ « المواسم الزراعية » . ولكن العلة الأولى فى كلتا الحالتين لا يمكن أن تكون إلا تتابع الفصول المنتظم على مدار الزمن ، سواء نظرنا إليه من زاوية المدار الظاهرى للشمس أو من ناحية ظواهر نمو النباتات . وقد نبعت من انتظام الفصول تلك الأسطورة التى تزعم أن الإله يموت فى بدء الشتاء ، ثم يبعث على أبواب الربيع . وعلى هذا النهج يمكن القول بأن بعض الآلهة التى ذكرناها كانت ، فى الأصل ، آلهة « كوكبية » ، وكان بعضها الآخر ينتمى إلى فصيلة « آلهة الزراعة » . ولكن بمرور الزمن ، حدثت بين هذه الصور الأولى أنواع من التداخل الطبيعى ، فأصبحنا لانستطيع الوصول إلى اليقين دائما فى الأصل الأصيل أو الخصائص الأساسية للكثير منها .

والظـاهر أن ميثرا كان إلهاً شمسيًّا ، لذلك احتفل بمولده فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، أى فى موعد الانقلاب الشتوى . ويبدو أن أوزيريس كان إلهاً قمريًّا ؛ ولعله لم يكن كذلك فى البدء . أما تموز ، فهو من آلهة الزراعة ، يقضى عليه قيظ الصيف وتحييه أول نسمات الربيع . وهكذا الحال بالنسبة إلى أدونيس ، وبالنسبة أيضاً – على ما نظن – إلى أغلب هؤلاء الآلهة الذين يموتون ثم يبعثون : فالعلاقة الواضحة بين حياة الشمس وحياة الأرض تفسر لنا فى يسر كيف تحول أرباب الزراعة إلى أرباب للكواكب . وعلى أى حال فإننا نلاحظ أيضاً أن أغلبهم على رابطة وثيقة بإلهة أم ، تتمثل فيها الأرض أو الطبيعة الخصبة ، وهى التى فى حجرها تربو أو التى منحتهم عطفها ورعايتها أو أحبتهم حب المرأة للرجل . . هكذا نجد « الأم الكبرى سيبيل » فى أسطورة أتيس ، وأفروديت بالنسبة إلى أدونيس ، وأشتار مع تموز ، وإيزيس إذا نظرنا إلى قصة أوزيريس . لذلك جمع الناس فى العبادة بين هؤلاء الأرباب وبين هاتيك الشخصيات الإلهية النسائية ، بل أقاموا لهم الشعائر فى معابدهن وكأنهم ضيوف لديهن .

ويهتم الدارسون إلى يومنا هذا بالطبيعة الأولى لبعض الآلهة ، ومازالت لهذه المسألة أهمية كبرى فى تاريخ الأديان . بيد أن الأمر الذى يهمنا فى المقام الأول هو الصورة التى رسمت والتفسير الذى أعطى للأساطير الخاصة بموت وبعث هؤلاء الآلهة . ونحن فى غالب الأمر نجد المعلومات التى نعتمد عليها متوافرة فى وصف الاحتفالات التى كانت تقام تكريماً لهم . وكل حفل منها يمكن أن يعتبر « مأساة » مسرحية فى موت الإله ثم بعثه . وقد تكون الطقوس مزدوجة ؛ وأقصد بذلك أنه كانت تقام احتفالات فى موسمين معينين من كل سنة . وفى

هذه الحالة يرتفع أحد الاحتفالين إلى مرتبة من الأهمية أعلى ، فى أعين الناس ، على حساب الثانى . هكذا كان الأمر مثلا بالنسبة الى الاحتفال الخاص بموت تموز فى تمام موعد الانقلاب الصيفى ، وكذلك الاحتفال بموت أدونيس ؛ وبين الإلهين المذكورين صفات مشتركة كثيرة تؤدى أحياناً إلى الخلط والاشتباه . أما بالنسبة إلى مردوك ، وإلى الآلهة الشمسية عامة ، فإن أهم الاحتفالين هو ذلك الخاص بانتصارهم أو بعثهم بعثاً جديداً . وعلى النقيض من ذلك قد نجد فى بعض الأحيان تجميعاً لعيدى الإله فى حفل واحد ، يقام فى الربيع أو فى الخريف ، ويبتدئ بنعى الإله الميت ، ثم لا يلبث الناس أن يمجدوا بعثه من جديد . ومثل ذلك الطقوس التى كانت تقام لموت وبعث أتيس فى النصف الثانى من شهر مارس مع حلول الاعتدال الربيعى .

(حـ)

تطورت أسطورة موت وبعث الإله هذه بتطور الشعور الدينى وإننا لانريد أن ندخل فى تفاصيل هذا التطور ، فمن شأنها – وإن حاولنا الاختصار قدر الإمكان – أن تخرجنا عن حدود الموضوع الذى يهمنا ، لذلك نكتفى بإثبات الصورة النهائية التى وصلت إليها .

وفيما يلى الخطوات المختلفة التى يسيرها الإله – فى مخيلة الناس إذ ذاك – للقيام بهذا الدور .

يتعذّب الإله تماماً كما يتعذب الإنسان ؛ ثم يموت كما يموت الانسان ؛ ولكنه يتغلب على العذاب وعلى الموت ، إذ يبعث من جديد ، وأتباعه يمثلون

رمزاً ويجددون كل عام ، بشكل ما ، مأساة حياته على هذه الأرض ، وهم مع هذا يؤمنون بأنه يتمتع بحياة السعادة فى ديار الخلد الإلهية منذ ذلك اليوم الذى بعث فيه حقيقة فى الماضى السحيق . فشكلة « النجاة » إذن بالنسبة إلى بنى البشر ، بعد أن شاركهم الإله فى ظروفهم الإنسانية بعذابه ثم بموته ، تتلخص فى الوصول إلى أعمق أعماق المشاركة المصيرية حتى تنتهى بهم أيضاً إلى البعث والحياة الأخرى فى ديار السعادة اللانهائية . والسبيل إلى ذلك وجدوه فى نوع من الطقوس المسرحية التى تنحو نحواً باطنيًّا ، فيفرض فى المؤمن أنه يشارك فى الذات الإلهية بواسطة سلسلة من المراسم الدينية توصف بالفعالية . إنه يمر رمزيًّا بمختلف مراحل التجارب التى مرّ بها الإله . وبهذه الوحدة مع الإله ، التى تغير كيانه الخاص ، يضمن الإنسان أن يصير إلى مصير الإله نفسه ، أى أن الخلود ينتظره بعد محن الحياة الدنيا وبعد الموت . وكان مصير « المنقذ الإلهى » – وتلك هى الصنعة التى يتخذها حينئذ آلهة الموت والبعث – كان مصيره فى آن واحد مثالا وضماناً لحياة المؤمن ، وقد وصف لنا « فرميكوس ماترنوس » – وهو أحد الكتاب المسيحيين من القرن الرابع – احتفالا ليليًّا من الاحتفالات التى كانت تقام لمثل هؤلاء الآلهة ، « الآلهة المنقذين » ، قال : « يبكى الناس ، ويستسلمون للرعب من المصير المجهول الذى ينتظرهم فى المستقبل اللانهائى ويدخل الرجل الساحة ثم يمر بكل كاهن ، ليلمس صدره حسب شعائر معينة ، وهو يهمس إليه فى بطء بالكلمات القدسية التالية : » لتعد الثقة إلى نفسك ، فقد نجا الإله . ولسوف تصل أنت أيضا إلى النجاه فى نهاية طريق الآلام » .

ونحن لانعلم على وجه التحديد كيف كانت الوحدة تتم بين المؤمن و « المنقذ » فى عبادات مختلف الآلهة المنقذين . ولكننا على يقين من أن هذه

الوحدة كانت هى الهدف فى سائر تلك العبادات ، من وراء بعض الطقوس التى نخص منها بالذكر طقسين يثيران الانتباه عند أول وهلة ، وهما : التعميد بالدم ومأدبة القربان .

وإننا لنجد فى عبادة الفريجيين للإلهة سيبيل وللإلهة أتيس ، كما نجد فى بعض الديانات الآسيوية الأخرى المختلفة ، وفى تلك التى تؤمن بالإله ميثرا ، نوعاً غريباً من الطقوس ، يدخل ضمن مدارج المعرفة الباطنية التى يختص بها الأتباع المخلصون ، ويدعى بـ « التوروبول » ، أى : التضحية بالثور[1] . ويحفر من أجله خندق داخل أسوار المعبد ، فينزل فيه المريد ، ثم تسدل عليه شبكة يذبح عليها ثور – حسب شعائر معلومة – وينهمر الدم فى الحفرة ، فيتلقاه الذى بها ويحاول أن يغمس فيه سائر أعضاء جسده . وبعد إتمام هذا النوع من التعميد ، تنزع أعضاء الذكر من الأضحية ، وتوضع فى إناء مقدس ، ويتقدم بها السالك قرباناً للآلهة ، ثم تدفن تحت هيكل تذكارى .

ولم تكن هذه الطقوس تتعلق فى الأصل بحياة المؤمن المستقبلة ؛ بل هدفت أول الأمر إلى منحه بعضاً من روح سيبيل وأتيس ، وقد اختص الأخير فى العبادة السائدة بتنظيم الطبيعة . ولايختلف هذا عما كان عليه أهل اليونان فى عبادتهم للإله ديونيزيوس الذى افترضوا له طقوساً لاتقل غرابة اليوم فى نظرنا ، وكانت تهدف إلى مشاركة الأتباع فى روحه الخصبة عند دخولهم دينه .

ولكن ، مع بداية العصر المسيحى ، أثرت تيارات دينية وفكرية ، يصعب علينا تمييز معالمها وتحديدها ، على شعائر التضحية بالثور ، فطورتها فى نهاية الأمر إلى وسيلة فعالة لكسب الخلود فى الحياة الأخرى حياة السعادة . وموجز تفسير

---

(١) أو الـ « كريوبول » عندما تكون الأضحية كبشا .

هذا المذهب : أن الحفرة تمثل مملكة الأموات ، وإذا ما نزل إليها المريد فكأنه مات . والثور هو أتيس ؛ أما دماؤه فتمثل جوهر حياته الإلهية ، ينزف منه ، فيتلقاه المريد ويتشربه ويمتزج به ، حتى إذا خرج من الحفرة عُدَّ « مولوداً من جديد » فسق اللبن كما يسق الوليد[1] . ولكنه لم يولد من جديد بشراً كما كان بل هو قد تشرب بذات الإله فى جوهره ، وأصبح بدوره – حسب أدوار السر المقدس – إلهاً هو نفسه أتيس ، وتقدّم له الفروض على هذا الاعتبار . ثم عليه بعد ذلك أن يتحد مع الإلهة سيبيل كما فعل أتيس ، زوجها ، فى سيرته الإلهية ؛ والتقرب إليها بتقديم أعضاء الذكر من الثور يرمز إلى هذا الزواج الذى يتم روحيًّا فى حجرة العرس الخاصة بـ « الأم الكبرى » ؛ كما أن قطع الثور يرمز إلى ما فعله أتيس ، إذ يروى أنه خصى نفسه تحت شجرة فمات من ذلك .

وبهذا يضمن المؤمن – لفترة طويلة[2] مشاركته فى مصير أتيس ، بالموت الذى لا مناص منه ، ثم بالبعث فى ديار السعادة والخلود مع الآلهة .

وإن الكثير من ديانات هؤلاء الآلهة المنقذين الشفعاء – أمثال ميثرا ، وبعل السورى ، وسيبيل ، وغيرهم – كان يجدد الاتحاد المنجى المترتب على الشعائر والطقوس المذكورة ، أو يدعمه ويقويه ، بواسطة مآدب خاصة يتناول المؤمنون الطعام فيها جماعة على موائد الإله ، ولا نشك فى أن هذه المآدب الدينية لم تكن

---

(١) نقرأ فى بعض النصوص : « طقوس التوروبول والكريوبول مولد جديد فى الخلود » . والنص إن أردنا الإنصاف من عصر متأخر (القرن الرابع الميلادى) إلا أنه يعبر تعبيرا واضحا عن الهدف الأعظم من المراسم الخاصة بالتضحية .

(٢) يبدو أن التضحية بالثور كانت تجدد بعد مرور عشرين عاماً (هكذا على أى حال كان الأمر فى السنين الأخيرة للإمبراطورية الرومانية) .

فى كثير من الأحيان إلا تعبيراً عن التآخى بين المؤمنين ورمزاً بحتاً لذلك . غير أن أحد الباحثين فى مثل تلك الأمور ، وهو كومون ، يقول لنا : « كان الناس فى بعض الحالات يترقبون نتائج أخرى للمأدبة التى يشتركون فيها . كانوا يطعمون لحم دابة يعتبرونها إلهية ، ثم يظنون أنهم بذلك توحدوا مع الإله نفسه وشاركوه فى جوهره وصفاته » . وإننا للأسف لانملك إلا القليل من المعلومات التفصيلية عن هذه المآدب الدينية وعن طقوسها وألوان الأطعمة التى كانت تقدم فيها ، وإن كان مغزاها العام واضحاً كل الوضوح . وقد نقل إلينا جوستين ، وهو أحد المدافعين عن المسيحية فى القرن الثانى الميلادى ، أن « أسرار » ميثرا احتوت على نوع من الشعائر يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز إلى المؤمن ، مع النطق ببعض العبارات المعروفة آنذاك والتى لم يوضحها الكاتب .

وتنقل إلينا النصوص كذلك أن « أسرار » سيبيل وأتيس كانت تفرض على الاتباع المشاركة فى مأدبة صوفية ، يصرح لهم بعدها بأن يعلنوا : « لقد أكلنا مما احتواه السنطور ، وشربنا مما كان فى الصنج ، فأصبحنا من أتباع أتيس » . والسنطور آلة موسيقية اختصت بها سيبيل ، فى حين اختص أتيس بآلة أخرى هى الصنج . وهناك من الدلائل ما يرجح أن الأطعمة المقدسة التى كانت توضع فى هاتين الآلتين هى الخبز ثم – على وجه الترجيح – لحوم الأسماك المقدسة والخمر . ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن أتيس كان يمثل بحبوب القمح ؛ ولذلك نرجع الرأى القائل بأن مآدب القربان التى ذكرناها لا تعنى فقط الجلوس إلى موائد الإله وتناول الأطعمة التى يفترض أنها لا تعنى فقط الجلوس وإنما تذهب فى رمزيتها إلى أبعد من ذلك : إنها تعنى بالنسبة إلى المؤمنين « طعامهم الإله نفسه » وتشربهم بجوهره المنجى .

هل نحن بحاجة إلى إيضاح أوجه الشبه الساطعة بين هذه الطقوس والشعائر المختلفة – وإن كانت النظرة إليها عاجلة سطحية – وبين طقوس وشعائر التعميد والقربان عند المسيحيين؟ إن كبار رجال الكنيسة من القديس بولس إلى القديس أغوسطين ، أى من القرن الأول إلى القرن الخامس الميلادى – لم يتجاهلوا هذا التشابه ، وهناك من الشواهد عدد وفير يدل على شدة اهتمامهم به . إلا أنهم فسروه حسب أهوائهم ، فقالوا : إن الشيطان أراد أن يتشبه بالمسيح ، وإن شعائر وطقوس الكنيسة كانت مثلا أراد المشركون أن يحتذوه فى « أسرارهم » . وتلك نظرية لا يمكن الدفاع عنها فى عصرنا الحاضر . فمن المرجح أن المسيحية أثرت فى كثير من الأحوال على أديان المشركين التى كانت مثلها تهتم بتأمين النجاة فى الخلود لبنى البشر بواسطة شفيع إلهى ؛ إلا أن الأساطير الجوهرية والمراسم الدينية الأساسية والرموز والشعائر الفعالة ، كانت سابقة فى تلك الديانات على مولد المسيحية ، وكانت تجد العديد من التطبيقات فى العبادات المنتشرة بالعالم اليونانى إبان العهد الذى عاش فيه القديس بولس .

ولنذكر القارئ بأن الأمر لا يتعلق بطقوس وشعائر معينة فحسب ، أنه يذهب إلى مدى أبعد من ذلك . يذهب إلى نوع من التصوير للمصير الإنسانى والخلاص البشر ، ثم يرمز إلى الإيمان والاطمئنان المرتبطين بـ « السيد الالهى » الذى يشفع للإنسان عند الإله الأعظم ، بعد أن ارتضى هذا « السيد الالهى » لنفسه أن يعيش وأن يتعذب كالإنسان ، حتى يصبح بنو البشر قريبين إليه لدرجة تسمح لهم بالاتحاد معه ، فيكون فى ذلك طريق نجاتهم حيث يرتبط مصيرهم ومستقبلهم بمصيره ومستقبل انتصاره . وتلك هى بالذات عقيدة القديس بولس فى رسالة ودور السيد المسيح ، ولم تكن بالعقيدة الغريبة على الناس ؛ بل هى لم

تتميز كذلك بالعنصر الأخلاقى فيها ، وإن كانت قد بالغت فى إظهار أهميته .
ونعنى بالعنصر الأخلاقى : الاشتراط على المؤمن باتباع حياة لا تتصف بالتقوى فحسب ، بل أيضاً بالطهر والكرم والرحمة . فالعبادات الأخرى عند المشركين كانت تفرض أيضاً على أتباعها مثل ذلك من الأخلاق ، وإن لم تبلغ فى التشدد فيها ما بلغته المسيحية .

(د)

ولكن هل أتيحت الظروف المواتية لبولس كى يتعرف على الأفكار الجوهرية والطقوس الأساسية لهذه « الأسرار » فى العبادات السائدة ثم يتأثر بها ؟ ذلك هو السؤال الذى يتبادر إلى ذهننا الآن .

إن المعلومات التى وصلت إلينا عن الحياة الدينية فى موطنه ، طرسوس ، خلال العصر الذى عاش فيه ، ليست بالمعلومات الوافية ولكن الآثار تدل دلالة قاطعة على أنه كان بها إلهان لهما مكانة خاصة .

الأول يدعى « بعل طرز » ، أى « سيد طرسوس » ، وهو الذى قرن أهل اليونان بينه وبين زيوس .

والثانى « ساندان » الذى قرنه أهل اليونان أيضاً بهرقل .

والإله الأول ، على أرجح الظنون ، كان إله زراعة قديماً ، يتحكم فى خصوبة الأرض . فلما انتقلت عبادته إلى المدينة وقرن شيئاً فشيئاً بزيوس ، ارتفعت مكانته ، واتخذ شكل وصفات إله السماء وسيد الآلهة ، وأصبح عرشه يعلو عن كل ما يمكن أن يبذله أتباعه من مساع لإدراكه ، أو هو يوشك أن يكون كذلك .

أما ساندان ، فقد بقى قريباً من المؤمنين به ، بل يكاد يكون ملموساً لهم وإننا لنخرج ببعض القضايا المؤكدة من خلال دراستنا للوثائق القليلة التي وصلت إلينا عنه ، ومن المناقشات والنظريات التى أثيرت حولها .

كان ساندان هذا فى الأصل إله خصوبة أيضاً ، أو – بصورة أعم – إل زراعة . وكان الناس يحتفلون به كل عام ، فيتظاهرون بإحراقه ، ويزعمون أن يرتفع بعد ذلك إلى السماء . وكان ، إذن ، يمثل بين أهل طرسوس المعتقدات المتمثلة خلال هذا العصر فى أتيس بين الفريجيين ، وفى تموز بين أهل بابل ، وفى أدونيس بالشام ، وأوزيريس بمصر ، وغيرهم من الآلهة المشابهين فى بلا أخرى . بل نرجح أن عبادة ساندان كانت تبنت منذ ذلك الوقت بعض الأفكا من دين أو أكثر من هذه الأديان .

ولكن هل أخذت كذلك عن تلك الأديان مذاهب المعرفة الباطنية وطر الوصول إلى النجاه الخاصة بها ؟ وهل يعدّ ساندان أيضاً « منقذاً » ؟ إنه لسؤا مزدوج لا يمكن الرد عليه حتى يومنا هذا ردا فاصلا . فليس هناك من الوثائ ما يثبت فى وضوح أنه كانت تقام له « أسرار » ، أو أنه كان يسم بـ« المنقذ » . ولكننا نلاحظ أن آلهة الزراعة الآخرين الذين يموتون ويبعثون كانت لهم « الأسرار » وكان أتباعهم يرون فيهم وسطاء بين البشر والإ الأعظم ، ويعدونهم شفعاء و« منقذين » . وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بأ ساندان لم يختلف عنهم . وعلى أى حال لو لم ير بولس من مظاهر عبادته سو الطقوس السنوية لتمجيد موته ، لكان ذلك وحده أمراً بالغ الأهمية .

ثم علينا أن نتساءل : هل كانت هناك عبادات أخرى ذات « أسرار بطرسوس فى بداية قيام المسيحية ؟ إننا نرجح ذلك ، بسبب موقع المدينة ع

مفترق طرق التجارة ، تلك الطرق التي كان الناس ينقلون بين أطرافها الأفكار والمعتقدات إلى جانب السلع والبضائع . ومع هذا يجب علينا الحذر فلا نقطع فى المسألة دون تحفظ . وإن قرب طرسوس من بلاد الفريجيين وصلاتها بالشام ، ثم علاقاتها الدائمة بفينيقيا وروابطها مع مصر ، كل ذلك يكاد يفرض علينا القول بأن أهل طرسوس كانوا على علم بروح « الأسرار » المنتشرة فى مختلف هذه البقاع ، وموضوعاتها الأسطورية الهامة وآمالها الأساسية ، ثم بأنهم أقاموا لأنفسهم بعضاً من شعائرها الأساسية فى شيء قليل أو كثير من الاهتمام . والعالم القديم يعرض علينا تيارات متصلة من مثل هذه المبادلات فى المجال الديني .

وإن لنا لملاحظة أخرى تؤيد ما نذهب إليه فى هذا المجال : تلك هى أن النزعة التأليفية التى تخلط أو تمزج أو تزاوج بين الآلهة ذوى الصفات أو الوظائف المتشابهة ، تلك النزعة قد ظهرت فى طرسوس بوضوح ومنذ زمن بعيد . ولعلنا نستطيع أن نعتبر هذه الظاهرة أبرز وأوثق ما وصل إلينا عن الحياة الدينية للمدينة . وإنا لنعلم إلى جانب ذلك أن العنصر الرئيسى فى نمو « الأسرار » هو لنزعات التأليفية .

فن المرجح إذن إن لم يكن من الثابت تاريخيًّا ، أن بولس تدرج فى نشأته لأولى بين أحضان بيئة مشبعة تماماً بفكرة « النجاة » هذه ، القائمة على شفاعة و وساطة إله يموت ثم يبعث ، ويشاركه أتباعه فى مصيره ، إذ يتحدون به — لا بالإيمان المطمئن القوى فحسب ، ولكن أيضاً بالطقوس الرمزية الفعالة . إننا لنكاد نميل هنا إلى القول بأن تلك الطقوس كانت تعدّ العنصر الأساسى فى وصول الأتباع إلى مرادهم . ولم يكن من المفروض حتماً على المرء أن يدخل فى عداد السالكين حتى يتعرف على هذه المفاهيم الدينية وعلى دلائل شعائرها ، أى

حتى يتحقق من وجودها ومما تنطوى عليه من رموز ؛ فأهم ما كان يخفيه الأتباع ويكتمونه عن عامة الناس ليس مبادئ إيمانهم وآمالهم ، وإنما هو « السر الأعظم الرهيب الذى يعتقدون أنه يحول كيانهم ويطوره تطويراً .

وكذلك لم يكن من المحتم على المرء بطرسوس فى هذا الزمن أن يتخذ مكانا فى حلقات الفلاسفة إن أراد تحصيل بعض مبادئ المذاهب التى يدرسونها ، فقد كانت طرسوس ، فى عهد الإمبراطور أغسطس ، مدينة تتحكم فيها جامعتها . ولهذا كان أهلها يعلقون أهمية كبرى على كل ما يصدر عن أساتذة هذه الجامعة ويبدو أن هؤلاء الأساتذة كان أغلبهم من الفلاسفة ، وأنهم كانوا ينتمون إلى المدرسة الرواقية . وسائر الدلائل تشير إلى أن الكثير منهم كانوا قد سبقوا إلى انتهاج نمط من التدريس الشعبى يبغون بها تعريف الجماهير بفلسفتهم ودعوتهم إليها ، ويذيعون فيها أحكامهم الأخلاقية الأساسية وشيئاً كثيراً من مصطلحاتهم الفنية . ويجب علينا ألا ننسى هذه الظروف عند قراءتنا لرسائل بولس التى نجد فيها آثاراً من الرواقية تكثر فى الشكل وتظهر فى المبادئ أحياناً . وقد تصور بعض السابقين ، عندما لاحظوا هذه الآثار ، أن داعية المسيحية كان قد اتصل بالفيلسوف سينيك ، وتبادل معه الرسائل الكثيرة . وأن هذا الاختراع الساذج لايبرز موضوع الجدل فى إطاره الصحيح مثلما يبرزه الحديث عن خصائص وأهمية الحياة الفلسفية بطرسوس . لقد عاش بولس فى وسط أشبع بأفكار الرواقيين وبلاغتهم . وهذا[1] المثل الثانى لتأثير البيئة التى عاش فيها سنى طفولته وشبابه الأول على الأقل ، هذا المثل ينير جوانب المثل الأول[2] ، ويتم توضيح

(١) الفلسفة الرواقية .

(٢) مفاهيم الأسرار

لسبل التى بواسطتها تلقى يهودى من يهود المهجر ، هو بولس – بطريقة تكاد يكون لاشعورية – مفاهيم « الأسرار » والفلسفة الرواقية ، فثبتت فى أعماق ىكره ، وكانت لها ثمار لم يتبينها هو نفسه إلا بعد ذلك بسنين كثيرة

وهناك ، على أى حال ، تساؤل آخر مازال ينتظر فصل القول ، وقد يكون ى الإجابة عنه عنصر هام من المعلومات الملازمة للتعرف على ذلك التطور لغامض فى سيرة بولس الدينية : هل كان كل يهود طرسوس من المتمسكين الشريعة اليهودية والمتشددين فيها ؟ أو كانوا على العكس من ذلك يفتحون بواب معابدهم فى صورة ما لمؤثرات البيئة التى يعيشون فيها ؟ ثم : ألم توجد من بنهم طائفة استسلمت لتيارات التفاعل بين الأديان الذى تحدثنا عنه سابقاً الذى دعا فى بعض الأحيان ، على ما يبدو ، إلى تطوير الأمل القومى فى لانتصار وهو حلول مملكة الله نحو مذهب « النجاة » ، ولو ثبت هذا ، ونحن يل إلى ترجيحه وإن كنا نجهل حقيقة الأمر – لما دعينا قط إلى افتراض أن لس قد اتصل بهؤلاء اليهود المنحرفين ، بل قد يمكننا القول ، إن أردنا ، بأنه ان يكرهم كل الكراهية ، وذلك اعتماداً على ما تشير إليه « أعمال الرسل » من ىمدده وتشدد عائلته فى دين أجدادهم . إلا أنه لم يكن ليتجاهلهم ، بل هو قد ىتقى منهم الرأى فى « النجاة » وفى « المنقذ » . ولو تأكد لدينا بصفة قاطعة أنه ثر بهم فى شبابه ، لقلنا : إن ذلك كان العنصر الأساسى ، أو – إذا شاء قارئ – البذرة الأولى ، فى تطور عقيدته .

ومهما يكن فصل الخطاب فى هذه المسألة الأخيرة ، فإننا – على أى حال – ستطيع تأكيد حقيقة لايمكن الجدل فيها ، تلك هى أن طرسوس لم تصبح حض المصادفة مهداً لـ « الحوارى المرسل إلى المشركين » ، أى للرجل الذى

ساهم بأكبر قسط فى نشر دين جديد للنجاة باسم المسيح عيسى ، وإنما كانت كذلك نتيجة لعوامل متعددة .

ومن ناحية أخرى ، فإننا حين ننظر إلى ملكات بولس العامة فى التبشير ، حسب أساليب يونانية – رومانية ، بعقيدة يهودية الأصل ، نجد أنه كان فى وضع يلائم تحقيق عمله كل الملاءمة ، فقد جمع بين مميزات ثلاث جعلت منه أقدر الناس على القيام بهذا الدور : كان يونانيًّا ، وكان يهوديًّا ، ثم كان أيضاً رومانيًّا .

وعندما نقول إنه كان يونانيًّا ، فإنما نقصد بذلك أنه أشرب فى بيئة طرسوس شيئاً من الروح الإغريقية بطريقة تكاد تكون لاشعورية ، وأنه لقن اللغة اليونانية ، فمنح بذلك أقوى أداة للفكر وللعمل ، وأيسر الوسائل فى عصره للتعبير عن الرأى والدفاع عنه . وعلينا ألا نبالغ فى الأمر بطبيعة الحال : فلم يكن بولس بالأديب اليونانى ، ولم يتخرج على أيدى أساتذة المدارس الكبرى فى مدينته ، كما لم يقم بدراسة مستفيضة لـ « الأسرار » . غير أنه عاش فى وسط يتحدث باليونانية ويستخدم كلمات مثل : « الله » ، « عقل » ، « منقذ » ، « منطق » ، « روح » ، « ضمير » ، فلم تكن بالكلمات الغريبة عليه بعد ذلك ، ويمارس نوعاً من فن البلاغة استطاع به أن يطوع أساليبه القوية الملفتة . وكان هذا الوسط يهتم بفلسفة معينة بقيت بعض أحكامها والكثير من مصطلحاتها الفنية فى ذهن داعية المسيحية . وكان كذلك وسطاً يتعلق عامة بأنماط من الأمل فى حياة أخرى تعقب الموت ، ويسعى إلى تحقيقها بل يؤمن أنه يحققها ، بوسائل مختلفة ، ولم يكن بولس ليجهل هذه الآمال ، ولاليعمى عن المظاهر الأساسية للوسائل المستخدمة من أجل تحقيقها . وقد قيل إن الروح اليونانية ليست بالعنصر

لأول فى شخصية بولس وإن كان يهوديًّا قبل أن يكون يونانيًّا ، والقائلون بذلك على صواب ولاشك فى دعواهم هذه . إلا أنه كان - وهذا أمر يجب أن نذكره دائماً يهوديًّا من مدينة طرسوس » . ويبدو من المؤكد اليوم أنه إن لم يكن قد ارتقى لى أرفع مراتب الثقافة اليونانية - وكانت بمتناوله فى رحاب مدارس وطنه - فقد تدرج فى الثقافة اليهودية لهذا العصر حتى بلغ منها منتهاها . وكانت هذه لثقافة تنحصر فى الدراسة المتبحرة للنصوص المقدسة . وسبق أن ذكرنا فى هذا لصدد سطوراً من مجموعة « أعمال الرسل » (٢٢ / ٣) تقول على لسان ولس ، إنه ربى على أعتاب جماليال ، أى : بالقدس فى مدرسة حفيد العالم لكبير حيليل . ونكرر هنا أننا لانثق كثيرا فى هذا الادعاء ، بل نعتقد أنه يبعد بنا ن الحقيقة . ومع ذلك فمن المسائل التى لا تقبل الجدل أن رسائل بولس تشهد معرفة للنصوص المقدسة مماثلة لما اعتدنا عليه من معرفة علماء اليهود بها ، يتضح من خلال هذه الرسائل روح مؤلف أخذ الكثير من الفريسيين فى كوينه الفكرى : فهو يعشق الجدل ويمتاز بالبصيرة النافذة المدققة وبالدهاء لشديد فى تقديم البراهين أو هدمها ، كما نراه يهاجم الشريعة اليهودية بنفس لأساليب التى استخدمها من قبل فى الدفاع عنها . ويتضح فى رسائله أيضاً أنه عتمد على رصيد من المذاهب - حول طبيعة الإنسان وفكرة الإثم والعلاقة بين لإثم والموت - لا تقل فى اتصالها بروح علماء اليهود ، عن مناهج الجدل التى طرقها .

ومن الظواهر ذات الدلالة العميقة أنه كان ، فيما يبدو ، يعتمد اعتماداً دائماً لى الترجمة اليونانية للتوراة ، المسماة بـ « السبعينية » . وغالب الظن أنه كان قرأ أيضاً الأصل العبرى ، ولكننا لانجزم بذلك . وعلى أى حال فهو لايكاد شير فى كتاباته إلى نص لها غير ذلك النص الإسكندرى الذى أشرب به

فكره[1] . وتلك الملاحظة على الأخص تدعونا إلى الاعتقاد بأنه لم يدرس النصوص المقدسة فى مدينة القدس ، ولكن فى إحدى المدارس اليهودية بالمهجر ، وإننا لنشير هنا إلى انطاكيا وهى غير بعيدة من طرسوس . وكانت المركز الفكرى الأكبر لآسيا اليونانية وميدان التلاقى أو التجمع للمذاهب والمعتقدات المتشابهة أو المختلفة .

ولم يكن غير اليهودى فى هذا العصر يهتم بدعوة عيسى . ولم يكن غير اليونانى يستطيع أن يمد فى أبعاد هذه الدعوة حتى يبلغ بها حدود العالمية وأن يبث فيها بذور الخصوبة . ونعنى بطبيعة الحال : ذلك اليونانى الذى لا يحد أفق فكره تعصب لثقافة مدرسية معينة ، والذى يأخذ من العالم الإغريقى نزعاته الدينية وصبوات إيمانه ، فيشارك فيها أكثر مما يشارك فى الاتجاهات الفكرية به . وقد جمع بولس بين اليهودية واليونانية ، ثم أضاف إليها ميزة ثالثة غالية هى تمتعه بالجنسية الرومانية ، أو بتعبير أدق : حصوله على صفة « المواطن الرومانى » . وكانت تلك الميزة ذات نفع كبير متعدد الجوانب : كانت تحميه من الانزلاق إلى تعصب يهود فلسطين القومى الذى اتصف بضيق الأفق وكراهية الأجنبى ، وكانت تدعوه إلى العالمية فى التفكير والعمل ، ثم كانت هى السبب الذى اتخذه – وهو لايكاد يشعر – ليرتفع بالأمل – الذى ظهر بين طائفة محدودة من اليهود – إلى مرتبة الأديان الإنسانية .

لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان « منشئ المستقبل » .

---

(١) كان يهود المهجر يعتبرون أن النص « السبعينى » منزل ، تماماً كالنص العبرى ، وتلك نظرية فرضها عليهم حرصهم الدينى ، وتعتمد على ما يروى من التشابه التام بين اثنين وسبعين ترجمة للنص قام بها اثنان وسبعون مترجماً . ومن الواضح أن مثل هذا التوافق لم يكن ليتم إلا بفيض من الله !